

المحاضرة الأولى:

السياسة الفرنسية في الجزائر بداية الاحتلال وأثرها

مقدمة:

ادعى الفرنسيون قبل دخولهم إلى الجزائر أنهم سيدخلون الحضارة لهذا البلد الذي كان تحت وطأة الأتراك لقرون عديدة يتعرض للظلم والخطرة، وأنهم بإمكانهم أن يخرجوه من تلك الظروف المزرية، وروجوا أكاذيب عدة لكسب الرأي العام الفرنسي والعالمي، بل ادّعوا أن اهتمامهم بالقضية الجزائرية مرده لإهانة القنصل الفرنسي دوفال (Duval)، وطرد الأتراك الدخلاء على الجزائر وتحريرها، تُرى هل وقت فرنسا بذلك؟ وهل طبقت ما جاء في المنشور الذي وزعته على الجزائريين عشية الحملة؟ وهل أوصلت فرنسا الحضارة والرقي والإخاء والمساواة للجزائريين بعد أن استقر أمرها في أرجاء الوطن؟ أسئلة كثيرة سوف نقف عندها من خلال هذه الدراسة التي توضح نماذج من سياسة القهر والتهور والنهب والإقصاء والمتابعة والنفي والاستنزاف، وكلها صفات ميزت الاستعمار الفرنسي في الجزائر، نحاول أن نقدم نماذج منها للتدليل على ذلك.

1/ طرد الأتراك:

لعل الشيء الذي بكرت به الإدارة الفرنسية في التنفيذ، بعد سقوط الجزائر العاصمة واستلام مفاتيح القصبية، هو التكفل بقضية العنصر التركي حتى تُوهم الجميع أنها وفيية لما وعدت به، فبعد المفاوضات التي دارت بين الإدارة الفرنسية وممثلين عن الداوي أفضت إلى اختيار الداوي حسين للمنفي بنابولي (بإيطاليا)، بعد أن تبادل الزيارة مع قائد الحملة الفرنسية دوبرمون (De Bourmont) في 7 جويلية 1830 ومعه قرابة 50 شخصا من الترك والعرب، و طالب باسترجاع حاجاته المسلوقة والتي من بينها كيسا يحتوي على 30 ألف قطعة ذهبية، أما زيارة القائد الفرنسي للداوي فكانت في اليوم الموالي وهي تندرج في سياق ترتيب نقل الداوي إلى خارج الوطن .

وفي 31 جويلية وصل موكب الداوي نابولي على متن السفينة الفرنسية جان دارك وكان برفقته 110 ممن فضلوا النفي معه من بينهم الآغا إبراهيم قائد الجيش المهزوم والخزناجي بصفته وزيرا للمالية و 57 امرأة من خدام الداوي وجواريه. وهكذا تخلصت فرنسا من المسؤول الأول في الجزائر لتتولى أمر ترحيل الأتراك الذين جاء دورهم بعد ترحيل الداوي، وتذكر

الكثير من الدراسات أن عدد الإنكشارية بلغ عشية الاحتلال زهاء 5000 منهم 891 مدفعيا نقلوا بواسطة السفن الفرنسية إلى بلاد الأناضول بعد تجريدهم من الأسلحة، وبعد أن خصص لهم القائد الفرنسي أجرة شهرين، وهذا في الظاهر تكرا من الإدارة الفرنسية لهذه الشريحة المقاتلة ولو أنه في الواقع ليس ذلك، ويعد تخلصا من هذا الجيش الذي كثيرا ما أقلق الدول الأوروبية، ومنها فرنسا، كما أن الأموال التي خصصها (دوبورمون) ليست فرنسية فهي أموال جزائرية .

2/ نهب الخزينة:

يذكر العديد من المعاصرين للحملة الفرنسية على الجزائر منهم حمدان خوجة وإسماعيل أو ريان أن معظم الجيش الفرنسي كان جاهلا وأن معظمه يتكون من الفلاحين والعامه، ومع ذلك كان أكثر تحمسا للغزو والاحتلال والتوسع والهيمنة وركوب البحر للتخلص من البحرية الجزائرية، وإبعاد الخطر المخيف الذي أقلق الدول الأوروبية قرونا عديدة ومن ثم محاربة الأتراك وشعوب الشمال الإفريقي وتخليص المسيحية من هذه الشعوب، ومن دون شك أن هذا التكوين الحسي الوطني لدى المقاتلين الفرنسيين لم يكن صدفة بل هو نتاج مرحلة هامة من الترويض والدراسة والتمكين بغرض إنجاح الحملة و خدمة سمعة فرنسا .

وكان إلى جانب الجنود النظاميين يوجد صنف آخر من المغامرين الشباب، هذا ناهيك عن فئة المتقفين ورجال الأدب والمترجمين والصحافيين والرسامين والمحامين ورجال الدين وغيرهم ممن هبوا لنصرة فرنسا وإرضاء المسيحية جمعاء.

وبعد وصول الجيش الفرنسي إلى دار السلطان أخذ مباشرة في نهب خزينة الدولة الجزائرية التي كان بها ما لا يقل عن 50 مليون دولار، ولعل ما يفسر ذلك أن الداوي حسين عندما نقل مقره من قصر الجنيينة إلى أعالي القصبه استغرق ما يقارب عن نصف الشهر، وجهاز لنقل محفوظات الخزينة 50 بغلا لكل ليلة. لذلك اعتبرت فرنسا نفسها أنها نجحت في الحملة من دون تكلفة مالية مقارنة بما وجدوه في خزينة الداوي، بعد أن سلم الخزناجي مفاتيح الخزينة لدوبورمون، وقدر الفرنسيون رسميا قيمة ما وجدوه في الخزينة ب 55.684.527 ف موزعة بين الذهب والفضة والجواهر ونقود ونحوها .

وإذا كان دوبورمون قد اهتم ببيت مال الداوي، فإن جنوده قد نهبوا القصبه وما احتوته من كنوز ثمينة وخلعت أبواب المحلات والمنازل ونهت الأموال والأثاث والحلي وكثر الاعتداء على الأشخاص وانتشرت الفوضى واللصوصية، ومن ثم انتهكت حرمة الأملاك سواء التابعة للدولة أو أملاك الخواص، وقدرت أملاك البايك ب 5000 ملكية، بالإضافة إلى عقارات

الخواص، وأملاك الوقف التي كانت مصنفة إلى سبعة أنواع هي : أوقاف مكة والمدينة وهي كثيرة وغنية، وأوقاف المساجد وأهمها الجامع الكبير وأوقاف الزوايا وأوقاف الأندلس وأوقاف الأشراف، وأوقاف الانكشارية، وأوقاف الطرق العامة وأوقاف عيون الماء، وقد استحوذت فرنسا على جميعها ووصف أحد المؤرخين الفرنسيين : بول آزان (Paul Azan) تلك الحالة المأساوية على العاصمة بأنه ليست هناك مدينة في العالم قد شهدت عند احتلالها ما شهدته مدينة الجزائر بقوله : " إن الجنود ارتكبوا أعمالاً وحشية فحربوا الفلات (les villas) وقطعوا أشجار الحدائق وخلعوا أعمدة المنازل لإيقاد النار و أثلفوا أنابيب المياه وهدموا السواقي كي تشرب حيواناتهم ، وتسببوا في تفجير مخزن للبارود، ولم يحافظوا على صحتهم وكثر المرض فيهم حتى أعلن المتصرف: (دينبيه) يوم 24 جويلية أن المستشفيات دخل بها 2500 مريض .

3/ تنظيمات الاستيطان:

إن أول ما قام به قائد الحملة الفرنسية هو تحرير المسجونين الفرنسيين في الجزائر الذي قدر عددهم وقتئذ ب 122 سجين مع العلم أنهم لم يطلقوا المساجين المكبلين في السفن الفرنسية، كما وضع (دوبورمون) نواة أولى للإدارة الفرنسية في الجزائر، وكلف لها لجنة مالية حكومية برئاسة دينبيه (Denier) وجعل أعضائها من الفرنسيين والعرب واليهود وأبعدوا منها العناصر التركية، ومن مهام اللجنة تسيير المدينة وتوفير حاجيات الجيش والسكان، وإيجاد الأمن، وتعد هذه اللجنة بمثابة نواة الحكومة الفرنسية العامة التي ستلد بعد توصيات اللجنة الإفريقية سنة 1834.

أما اللجنة الثانية التي برزت في عهد (دوبورمون) فهي لجنة البلدية المشكلة من أعيان الحضر وكبار اليهود الذين وجدوا الفرصة سانحة للانتقام من الجزائريين، وكانت هذه اللجنة برئاسة الفرنسيين، ومن بين الجزائريين الذين كانوا ضمن اللجنة أحمد بوضربة وحمدان خوجة و إبراهيم بن مصطفى.

أما اللجنة الثالثة فهي دينية مالية تشرف على الأوقاف ومواردها، وقد سموها اللجنة الخيرية للغوث، وهي مؤلفة من 9 أشخاص هم: 4 فرنسيين و 5 جزائريين من بينهم حمدان بن عثمان خوجة.

وخلال السنوات الأولى للاحتلال لم يكن هناك نموذج إداري اتبعه الفرنسيون، ودام الحال كذلك إلى غاية مجيء اللجنة الإفريقية و صدور قرار جويلية 1834 الذي ألحق الجزائر بفرنسا ونظم إدارتها على نحو شبيه بما كان يجرى في فرنسا، ومن الذين تولوا الحكم

خلال السنوات الأربعة الأولى بعد (دوبورمون) الجنرال كلوزيل (Clauzel) وبرتزين (Berthezene) والدوق دوروفيغو (Duc de Rovigo) وفوارول (Voïrol)، وكلهم كانوا مهتمين بمشاريع الاستعمار، ومحاربة الثوار أكثر ما كانوا مهتمين بالتنظيم الإداري، ومنذ 1834 أعطت الحكومة الفرنسية الموافقة على إلحاق الجزائر بفرنسا وإعطائها إدارة خاصة تمثلت في منصب الحاكم العام الذي كان مسؤولاً أمام الحكومة الفرنسية عن الأمور المدنية والعسكرية في الجزائر. وهكذا ظلت الجزائر تحت الحكم العسكري إلى عهد الجمهورية الرابعة (1946-1952) وإلغاء الإدارة العسكرية في الشمال وإبقاء الجنوب تحت النظام العسكري حتى استقلال الجزائر.

4/ طمس المعالم الجزائرية و إبطال القيم الوطنية:

منذ أن وطأت أقدام الفرنسيين أرض الجزائر وهم يشوهون المعالم العربية الإسلامية ويعملون على طمسها وتحويلها إلى معالم فرنسية، وقد شمل ذلك المدن التي احتلها وتجسد ذلك في تغيير أسماء الشوارع وتهديم المنازل والأسواق، مع إحداث الساحات وتسميتها بأسماء قادة الحملة الفرنسية وبعض زعماء فرنسا، كما حولت العديد من القصور إلى مؤسسات عسكرية ومستشفيات ونحوها. كما حولت المساجد إلى كنائس وأغلقت المدارس والزوايا ودور القرآن و التعليم .

ومن أهم المدن التي تعرضت في العشرية الأولى للاحتلال للطمس والتهديم، مدينة الجزائر باعتبارها دار السلطان ورمز القوة البحرية، ومن أمثلة ذلك نقل بعض المدافع الجزائرية إلى فرنسا مثل مدفع (بابا مرزوق) الذي تعود صناعته إلى القرن 16 وهو يمثل رمز قوة البحرية الجزائرية، وخلال وقت قصير جدا هدم الفرنسيون مئات المنازل في الجزائر لإقامة ساحة عمومية تسمى حاليا ساحة الشهداء، وكانت طريقة البناء تؤدي إلى سقوط العديد من المباني لارتباطها ببعضها البعض، كما أطلقت أسماء رومانية وأوروبية وحتى تاريخية على العديد من الأزقة مثل شارع (يوبيا وشارل الخامس) وشارع (كليبر) وغيرت اسم باب المرسى بباب فرنسا، كما أدخلت تعديل على اللباس مثل القبعة ونزع اللحاف وكذلك بناء المخامر ومقرات الموسيقى والمراقص والكحول والمشروبات وغيرها من أماكن المجون واللغو. والتي تهدف الى غرس الثقافة الجديدة الأوروبية في الجيل الجزائري الجديد، وهي متناقضة كل التناقض مع ما كان لدى الجزائريين باعتبارهم متمسكين بالتقاليد والعرف والديانة الإسلامية .

5/ الاستهتار بالمؤسسات الدينية ونشر المسيحية :

في يوم الأحد الموالي لدخول الفرنسيين القصة أي 11 جويلية أقاموا حفلا دينيا في حي القصة حضره الجنرالات وضباط الحملة بزعامة دويورمون، وكان الحفل استفزازيا للجزائريين، وعبر عن نشوة الانتصار وغلبة فرنسا على الجزائر للحط من معنويات الجزائريين والرفع من ثقة الفرنسيين، وقد عبر عن ذلك النصر الكبير أحد الفرنسيين بقوله : **إن الاحتفال الضخم جرى في القصة التي بناها أبناء محمد (ص) لمواجهة أبناء عيسى عليه السلام ، وقد رتلوا آيات الإنجيل بأصوات عالية أمام آيات القرآن التي أصبحت ميتة والتي كانت تغطي كل الجدران** ."

كما يذكر الفرنسي بوجولا (Poujoulat) أن الانتصار هو انتصار المسيحية وأن الفرنسيين علقوا الصليب على ثلاث مآذن في مدينة الجزائر وأن الذين ماتوا هم شهداء الحضارة والوطن والمسيحية، كما جعلوا من مسجد كتشاوة الذي بناه حسن باشا سنة 1794 كاتدرائية، وفي سنة 1838 أسسوا أسقفية الجزائر الناطقة باسم المسيحية في المستعمرة.

وإذا كانت مساجد الجزائر، حسب إحصائية أحد الرحالة الهولنديين خلال القرن 17، عددها حوالي 700 مسجدا، فإن عددها تقلص سنة 1830 إلى 176، وفي سنة 1899 لم يبق منها سوى 5 مساجد على مستوى الجزائر العاصمة وهي: الجامع الكبير، والجامع الجديد، وجامع سيدي رمضان، وجامع سفير وجامع عيسى باشا.

كما هدمت الكثير من المساجد منذ بداية الاحتلال مثل مسجد السيدة الذي زرکشه حسن باشا بالرخام المستورد من إيطاليا، كما حولت العديد من المساجد إلى كنائس كجامع القصة وجامع القائد وغيرهم.

وخلال منتصف القرن التاسع عشر رصدت الإدارة الفرنسية إمكانات مادية ضخمة لإنجاح سياسة التغريب والإلحاق والدمج، واتضح ذلك في مشروع الكاردينال لافيغري (Lavegerie) الذي راهن على جعل الجزائر بوابة لتمسيح إفريقيا بوسائل عديدة منها التعليم والتطبيب(العلاج) والمعونات الخيرية وجمع الأطفال اليتامى واستغلال الأزمات التي ألمت بالجزائريين مثل المجاعة وغيرها، وقد ركز لافيغري في مشروعه على بلاد القبائل، وأسس منظمة الآباء البيض التي أقامت على عاتقها نشر المسيحية، وأشار إلى ذلك بقوله : **"ليس الهدف من فتح المدارس في شمال إفريقيا هو نشر التعليم، ولكن الهدف هو تبديل لغة بلغة ودين بدين وعادات بعادات .."**